بين تداولية الأفعال الكلامية والحجاج
(مقاربة مفاهيمية)

أ. حمدي منصور جودي
أستاذ مساعد (أ)
جامعة محمد خيضر – بسكرة .

- التداولية ونظرية الأفعال الكلامية :

1- أ/ مفهوم التداولية :

لقد تعددت التعريفات حول مفهوم التداولية " Pragmatique " بسبب ارتباطها وتداخلها مع الكثير من العلوم التي تقاسمها موضوع دراسة اللغة الطبيعية. مع العلم أن هذه العلوم قد ساعدت على نشأة التداولية، وتكوين شبكتها المفاهيمية التي " تضم مستويات متداخلة، كالبنية اللغوية، وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، والعمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللغويين وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال "1.

والتداولية ليست " علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية "2، لأنها لا تمثل أي مستوى من مستويات التحليل اللساني، ولهذا " فالأخطاء التداولية لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجية أو النحوية أوالدلالية، وهي ليست مستوى يضاف إلى هذه المستويات "3، بل إن التداولية قد تشمل في درسها هذه المستويات التحليلية مع جوانب أخرى تلتقي فيها بقية العلوم؛ كالفلسفة التحليلية، وعلم النفس المعرفي، وعلوم الاتصال، وعلمي اللغة الاجتماعي والنفسي- وكذا اللسانيات. مما يجعلها نقطة التقاء هذه العلوم والمعارف في مجال دراسة اللغة؛ فالفلسفة التحليلية كانت المصدر المعرفي لظهور مفهوم "الأفعال الكلامية Les Actes de Parole "، وأما علم النفس المعرفي فكان سببا في ظهور "نظرية الملاءمة Théorie de Pertinence "، وأما علما اللغة الاجتماعي

والنفسي فيشاركان التداولية في جانب تحديد العلاقات الاجتماعية بين المتخاطبين، وإبراز مرتبتهما، وأثر السياق الإجتماعي والنفسي في اختيارهما السمات اللغوية أثناء التواصل.

ويرجع استخدام مفهوم التداولية إلى الفيلسوف الأمريكي " تشارلز موريس Charles MORRIS " سنة 1938 ، إذ عدّه واحدا من مكونات " السيميائية Sémiotique " المرتكزة على ثلاثة علوم هي:

1- علم التراكيب "Syntaxe ": هو" نحو يدرس علاقة العلامات بعضها ببعض في شكل تركيب صحيح"4، ويهتم بتحديد خصائص الشكل اللغوي أثناء بنائه.

2- علم الدلالة " Sémantique ": يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أو تحيل إليها؛ أي " تحديد العلامات القائمة بين الماهيات اللغوية وبين العالم الخارجي"5.

3- التداولية " Pragmatique ": تدرس علاقة العلامات بمستعمليها المفسرين والمؤولين لمعناها في سياق تواصلي،" لأن المعنى يضطرنا في بعض الصيغ اللغوية إلى العودة لدراسة الطريقة التي قام من خلالها المتحدث ببناء الجملة "6؛ فمعرفة السياق اللغوي والوحدات اللغوية الداخلة في تكوين الجملة يمكنان من فهم مقاصد المتكلم أثناء الخطاب.

وعلى هذا الأساس فالتداولية تعّد "جزءا من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات "7، وتتجاوز- بذلك - التداولية حدود اللسانيات في دراسة البنية اللغوية إلى مجال استعمال هذه البنية اللغوية في المجال التواصلي المرتبط بالسياق الدلالي اللغوي والاجتماعي والنفسي لمستعملي هذه البنية اللغوية. فالتداولية " علم جديد للتواصل يدرس الظاهرة اللغوية في مجال الاستعمال "8، أي دراسة استعمال اللغة أثناء التواصل، بغية " إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي "9. مع العلم أن التداولية " ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي"10، وإنما هي محصلة التقاء معارف وعلوم كثيرة في مجال دراسة اللغة وتفسيرها في المواقف التواصلية.

كما ترتبط التداولية مع هذه العلوم في البحث عن إمكانية توظيف المعنى اللغوي عند الاستعمال الفعلي، على اعتبار أن هذا المعنى صيغة مركبة من السلوك المولد له أثناء

التواصل، هذا الارتباط ساعد على إثراء الشبكة المفاهيمية للتداولية، فبرزت الكثير من المفاهيم منها : الإشاريات ، ومتضمنات القول ، ونظرية الملاءمة ، والاستلزام الحواري ، ونظرية الأفعال الكلامية.

1- ب/نظرية الأفعال الكلامية (من منظور أوستين وسيريل) :

نشأت نظرية " الأفعال الكلامية les Actes de Parole " من اهتمام الكثير من باحثي العلوم المختلفة، بدراسة اللغة الطبيعية في جانب استعمالها الفعلي والحقيقي، وتمثل هذه النظرية تداولية الدرجة الثالثة؛ إذ "يتعلق الأمر بمعرفة ما تمَّ من خلال استعمال بعض الأشكال اللسانية، فأفعال اللغة مسجلة لسانيا "11. وسنركز - هنا - في تحديد ملامح هذه النظرية على جهود كل من " أوستين AUSTIN " و " سيريل SEARLE". فقد كان نقد " أوستين" لنظرة فلاسفة الوضعية المنطقية للغة منطلقه في إبراز هذه النظرية التداولية؛ ففلاسفة الوضعية المنطقية يرون أن " اللغة وسيلة لوصف الوقائع الموجودة في العالم الخارجي بعبارات إخبارية، ثم يكون الحكم بعد ذلك على هذه العبارات بالصدق إن طابقت الواقع، وبالكذب إن لم تطابقه. وإذا لم تطابق العبارة واقعا فليس من الممكن الحكم عليها بصدق أو كذب، ومن ثَمَّ فلا معنى لها "12.

غير أن " أوستين " يعتبر ذلك مغالطة وصفية، لأن هنالك نوعا من العبارات لا يمكن الحكم على صدقها أو كذبها، وهو ما " يشبه العبارات الوظيفية في تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم "13، ولا ينشيء قولا، وإنما يؤدي فعلا، قياسا بتعدد وظائف اللغة التي " لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، ولكن للغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والتمني والشكر، والتهنئة واللعن والقسم والتحذير"14.

وهذا ما دفع " أوستين " إلى التمييز بين نوعين اثنين من الأفعال هما :

1- أفعال إخبارية " Actes Constatifs " : هي الأفعال التي تصف وقائع العالم الخارجي التي يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب .

2- أفعال أدائية " Actes Performatifs" : هي الأفعال التي لا تصف ولا تخبر ولا يمكن الحكم عليها بالصدق أو بالكذب، وإنما التلفظ بها في ظرف محدد يؤدي إلى تحقيق

فعل في الواقع، كالتسمية، والوصية، والاعتذار، والنصح، والوعد.

ومن أجل أن يؤدي هذا النوع الثاني من الأفعال فعلا في الواقع، وضع له " أوستين " مجموعة من الشروط التكوينية والقياسية؛ فأما التكوينية فتتعلق بالفعل في حد ذاته، من حيث إمكانية تنفيذه، وقدرة الناس على ذلك من خلال ملفوظ محدد. وأما القياسية فتمثل صدق المشاركين في هذا الفعل، من حيث المشاعر والنوايا والإلتزام بهذا الفعل. وفي حال توفر جملة هذه الشروط يتشكل الفعل الكلامي من "كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك، يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول"15. واعتبارا من هذا التعريف قسم "أوستين" الفعل الكلامي إلى ثلاثة أفعال فرعية، لا يستطيع المتكلم تأديتها واحدا تلو الآخر، وإنما تمثل هذه الأفعال جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، وهي :

1- الفعل اللفظي (أو فعل القول)"Actes Locutoire": يقصد به " إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة "16، ويمثل جملة ما تشكله مستويات التحليل اللساني: الصوتي، والتركيبي، والدلالي. فالأصوات اللغوية تنتظم داخل تركيب نحوي سليم له معنى مقصود وإحالة محددة.

2- الفعل الإنجازي " Acte Illocutoire " : يمثل " عملا ينجز بقول ما"17؛ أي ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يتضمنه المعنى الأصلي المجرد، كالسؤال والإجابة عن السؤال؛ فالفعل الأول هو التلفظ بمجموع الأصوات اللغوية المنتظمة تركيبيا ودلاليا، أما الفعل الثاني فهو القيام بفعل ضمن الفعل الأول.

3- الفعل التأثيري "Acte Perlocutoire" : هو" التسبب في نشؤ آثار في المشاعر والفكر"18 لدى المتلقي نتيجة ما يحدثه الفعل الإنجازي لديه انطلاقا من الفعل اللفظي. وقد لاحظ " أوستين " أن الفعل التأثيري قد لا يلازم الأفعال الكلامية ككل، إذا لم يؤثر في المتلقي، فركز جهوده على الفعل الإنجازي، الذي كان ركيزة نظريته، وأساس تقسيم وتصنيف الأفعال الكلامية، على النحو التالي :

1- أفعال الحكم "Actes Verdictifs" : هي الأفعال التي تصدر عن سلطة معترف بها لإعلان حُكم صادر عن قاض أو حَكَم، كأفعال التبرئة، والتقدير، وإصدار المرسوم، والتقويم، والتصنيف.

2- أفعال القرارات (الممارسة) "Actes Exercitifs" : هي الأفعال التي تمثل إصدار قرار نابع من ممارسة حق، كأفعال التعيين، والأمر، والتأسف، والإذن، والنصح، والتنبيه.

3- أفعال التعهد (الوعد) "Actes Promissifs" : هي الأفعال التي تمثل إلتزام المتكلم بفعل شيء ما أمام المتلقي أو المستمع، كأفعال الوعد، والتمني، والقسم، والرهان، والضمان.

4- أفعال السلوك "Actes Comportatifs" : هي الأفعال التي تمثل ردود أفعال تجاه سلوك ما، كأفعال الاعتذار والتعزية، والشكر، والتهنئة، والترحيب، والنقد، واللعنة.

5- أفعال الإيضاح (العرض) "Actes Expositifs" : هي الأفعال التي تدخل في حجاج المتكلم مع المتلقي، لعرض مفاهيم، أو إيضاح وجهة نظر، أو بيان رأي، أو استعمال قول؛ كأفعال الإثبات، والتأكيد، والإنكار، والاعتراض، والوصف، والتعريف، والتأويل، والشرح، والتفسير.

وقد أشار " أوستين " إلى عدم رضاه عن هذا التصنيف، الذي لم يكن كافيا لبناء نظرية شاملة للأفعال الكلامية، بسبب تداخل المجموعات فيه، فكان" من الصعب نقد التصنيف المقترح وتقديم تصنيف آخر بكل ما يكفي من الضمانات "19، إلى أن قام "جون سيريل SEARLE" بذلك واضعا الأسس والمقاييس المنهجية التي تقوم عليها هذه النظرية، واستنادا إلى ما عرضه حول القوة الإنجازية للفعل الكلامي؛ إذ اعتبر أن الفعل الكلامي مرتبط بمقاصد المتكلم وبالأعراف اللغوية والاجتماعية لاستعمال اللغة، وأن الفعل الإنجازي هو" الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وأن للقوة الإنجازية دليلا يسمى دليل القوة الإنجازية، يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه للجملة "20.

كما أعاد "سيريل" النظر في مكونات الفعل الكلامي، ومجموع الشروط التكوينية والقياسية الضابطة له وفق اقتراح " أوستين"، بسبب ذلك التداخل الحاصل بين الأفعال الإخبارية والأفعال الأدائية، وعدم وجود فاصل للتمييز بينها، فقد تنطبق شروط الأفعال

الأدائية على أفعال ليست أدائية. وعلى اعتبار أن " أوستين" قد قسم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أفعال فرعية وهي :

1- الفعل اللفظي.
2- الفعل الإنجازي.
3- الفعل التأثيري.

عمد " سيريل " إلى اعتبارها أربعة أفعال فرعية، من خلال تقسيم الفعل اللفظي إلى قسمين اثنين، على هذا النحو:

1- الفعل النطقي " Acte Enonciatif" : يمثل مستويات التحليل اللسان (الصوتي، والتركيبي، والمعجمي).
2- الفعل القضوي "Acte propositionnel" : يمثل قضية تتألف من طرفين؛ متحدث عنه أو المرجع، ومتحدث به أو الخبر، أي أنه مقصود المتكلم من خلال الفعل النطقي.
3- الفعل الإنجازي "Acte Illocutoire" : يمثل عند " سيريل " الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وهو الذي يصب معظم اهتمامه عليه.
4- الفعل التأثيري "Acte Perlocutoire" : ما يتركه الفعل الإنجازي من أثر في المتلقي، وهذا النوع ليست له أهمية كبيرة عند "سيريل"، فكل فعل في نظره ليس بالضرورة ذا أثر في المتلقي.

وقد طور "سيريل" شروط الملاءمة حسب تصور " أوستين"، التي " إذا تحققت في الفعل الكلامي يصبح موفقا"21، فجعلها أربعة شروط هي :

أ- شرط المحتوى القضوي : بأن يكون للكلام معنى قضوي، وهو المعنى الأصلي للقضية المتألفة من مرجع وخبر.

ب- الشرط التمهيـــــدي: يتحقق بقدرة المتكلم على إنجاز الفعل، دون أن يكون إنجازه واضحا في ظروف طبيعية من عدمه لدى المتكلم والمتلقي.

ج - شـــــرط الإخلاص : يتحقق بإخلاص المتكلم فيما يقوله، ورغبته في تأدية المتلقي لهذا الفعل.

د- الشـرط الأســـــاس : يتحقق بمدى محاولة المتكلم التأثير في المتلقي وحثه على تأدية هذا الفعل.

وعلى هذا الأساس بنى " سيريل " تصنيفه للأفعال الكلامية، قياسا على أسس منهجية تتمثل في :

- الغرض الإنجازي للفعل الكلامي.
- اتجاه المطابقة بين الكلمات والعالم.
- شرط الإخلاص في صدق المتكلم ورغبته في تأدية الفعل الكلامي .

فكان هذا التصنيف على النحو التالي22 :

1- الإخباريات (التأكيدات) "Assertifs": غرضها الإنجازي هو وصف المتكلم واقعة معينة، واتجاه المطابقة فيها يكون من الكلمات إلى العالم، وشرط الإخلاص يتمثل في صدق المتكلم ونقله الأمين للواقعة، وأفعال هذا الصنف يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب.

2- التوجيهات (الأوامر) "Directifs": غرضها الإنجازي هو توجيه المتلقي لفعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها هو الرغبة الصادقة للمتكلم في توجيه المتلقي، ومن أفعال هذا الصنف: الأمر، والنصح، والاستعطاف، والتشجيع، والترجي، والطلب.

3- الإلتزاميات (الإلتزامات) "Commissifs": غرضها الإنجازي هو إلتزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو قصد المتكلم، ومن أفعال هذا الصنف: الوعد والوصية.

4- التعبيريات (التصريحات) "Expressifs": غرضها الإنجازي هو التعبير عن المواقف النفسية، دون وجود اتجاه مطابقة في هذا الصنف بين الكلمات والعالم، وشرط الإخلاص والصدق مطلوب فيه، ومن أفعاله ما يتضمن: الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والمواساة، والتعزية، والترحيب.

5- الإعلانيات (الإدلاءات) "Déclarations": غرضها الإنجازي يكمن خلف الأداء الناجح لها من خلال مطابقة المحتوى القضوي للعالم الخارجي؛ أي مطابقة المقصود بالمعنى الأصلي، واتجاه المطابقة فيه يكون من الكلمات إلى العالم ومن العالم إلى الكلمات، أما شرط الإخلاص فلا يحتاجه هذا الصنف.

لقد اعتمد " سيريل " في تصنيفه للأفعال الكلامية على مقصد المتكلم بدرجة كبيرة، وما يريده هذا المتكلم قصد إنجازه، من خلال الجمل التي ينطق بها في سياقات تواصلية مختلفة. فلاحظ أن هنالك من الأفعال الكلامية ما يتطابق فيها منطوق المتكلم بمقصده؛ أي أن المعنى الأصلي هو نفسه المعنى المراد من المتكلم، ومنها ما يكون فيه مراد المتكلم ومقصده مختلفا عن المعنى الأصلي للمنطوق. ففرّق - بذلك - بين الأفعال الإنجازية فيما سماه أفعالا إنجازية مباشرة، وأفعالا إنجازية غير مباشرة، على اعتبار أن الفعل الإنجازي مكوِّن فرعي للفعل الكلامي. فالأفعال الإنجازية المباشرة هي" التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم "23؛ أي أن ما يتلفظ به المتكلم هو نفسه معنى ما تحمله دلالة الجمل في مختلف السياقات التواصلية. أما الأفعال الإنجازية غيرالمباشرة فهي " التي تخالف قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فالفعل الإنجازي يؤدى على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر"24، فيكون معنى منطوق المتكلم غير مراده، ولا تدل الصيغة التركيبية لهذا المنطوق على زيادة في المعنى الأصلي إلا إذا قصده المتكلم، هذه الزيادة تتم بواسطة استنتاجات يقوم بها المتلقي من سياق تواصلي لآخر، لأنها متغيرة بتغير السياق ذاته.

2- الحجاج والأفعال الكلامية :

2- أ/ مفهوم الحجاج :

لغة: ورد في لسان العرب في مادة (ح،ج،ج) " الحجة: البرهان، والحجة ما دوفع به الخصم، والحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة..التّحاج: التخاصم..والحجة: الدليل والبرهان، وأحج خصمي أي أغلبه بالحجة"25.

وعليه فمعاني الحجاج معجميا تدور حول التخاصم، والتنازع، والتغالب، واعتماد الدليل في وجه الخصم.

اصطلاحا: الحجاج "جنس من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في مواقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"26. ويتخذ الحجاج اللغة إستراتيجية بنائية له، ذلك أن اللغة "نشاط كلامي يتحقق في الواقع وفق معطيات معينة من السياق"27. فيهدف المتكلم إلى نقل مدركاته وتصوراته عن طريق اللغة إلى المتلقي قصد إقناعه والتأثير فيه، مما يجعل لهذه اللغة بعدا تداوليا، مرده إلى طبيعة القضية الحجاجية وإلى السياق ذاته، ثم إلى ذلك المتلقي الذي تنعكس عليه قضايا الحجاج في ردود أفعاله قبولا أو رفضا. لأن هذا المتلقي يسعى إلى "استخلاص النتائج وربط الأمور بعضها ببعض، على حسب مستواه ومدى استيعابه للحجج المستعملة من قبل المتكلم"28.

ويقصد المتكلم من خلال الحجاج إلى إقناع المتلقي واستمالته إلى فعل معين، انطلاقا من القضية الخلافية التي تكون بينهما، إذ أن الإقناع ضرورة يتطلبها الحجاج، لارتباطه بالسياق التواصلي والمتلقي في آن واحد، فهو محاولة واعية من المتكلم التأثير في سلوك المتلقي من خلال إستراتيجية لغوية محددة، تدور حول عناصر منها ما يرتبط بمكونات الحجاج، ومنها ما يرتبط بالسياق وبالمتلقي معا:

أ- مكونات الحجاج29 : يتألف الحجاج عموما من أساسيات هي:

1- الدعوى: تمثل نتيجة الحجاج، وغايتها التأثير في المتلقي لقبول أفكار المتكلم، سواء بطريقة صريحة أو ضمنية تلميحية يستنتجها المتلقي.
2- المقدمات: هي مجموعة المسلمات والبديهيات التي يؤسس المتكلم على منوالها حجاجه، كما تمثل أيضا النقاط المشتركة التي لا يختلف حولها المتكلم والمتلقي.
3- التبرير: يمثل بيان البرهنة على مدى تطابق وصلاحية المقدمات للنتيجة المقصودة.
4- الدعامة (التدعيم): تمثل مجموعة الأدلة والشواهد التي يستعملها المتكلم قصد تقوية النتيجة لدى المتلقي ليقبلها. وهذه الأدلة والشواهد يستعملها المتكلم على حسب مقتضى الحال؛ فمنها التدعيم بالدليل (سواء شواهد خاصة أو تاريخية)، ومنها

التدعيم بالمصداقية (سواء بإلتزام المتكلم دعوى الحجاج أو إلتزام غيره بها)، ومنها التدعيم بالقيمةالحجاجية، فكل حجاج يحمل في طياته قيّما يتعارف الناس حولها إتفاقا أو إختلافا.

5- مؤشر الحال: يمثل مجموع التعبيرات اللغوية التي تظهر مدى قابلية النتيجة للتطبيق واقعا، مثل: من الممكن، من المحتمل، يرجح،...
6- التحفظات والاحتياطات: تمثل ما يضعه المتكلم في حسبانه مسبقا لردود أفعال المتلقي تجاه دعوى الحجاج.

ب- سياق الحجاج: يمتاز السياق بدور كبير وقوي" في صياغة الخطاب وتقنياته من حيث كونه رسالة تستهدف استمالة المتلقي والتأثير فيه"30وهذه هي غاية الحجاج. ومعرفة علاقة موضوع الخطاب بزمانه ومكانه، وبالمحيط الثقافي والاجتماعي والنفسي له، يبرز الأبعاد الحجاجية داخل هذا الخطاب، وعليه تختلف أبعاد الحجاج باختلاف سياقاته التواصلية.

كما أن العلاقة بين المتكلم والمتلقي في هذا الشأن تحدد بعضا من ملامح الحجاج، فالمتكلم يستعمل مقدمات وتبريرا وتدعيما انطلاقا من تصوره لطبيعة المتلقي، وردود أفعاله الممكنة والمحتملة، وبالمقابل فإن للمتلقي دورا بارزا في تحديد ملامح الحجاج، فهو سبب في إنشائه بمعية الموضوع الخلاف بينه وبين المتكلم، لذا يعتبر الحجاج متغيّرا بتغيّر الشخص الذي يوجه إليه.

2- ب/ مقاربة أفعال الكلام (حسب سيريل) بالبنية العامة للحجاج:

تعد وظيفة اللغة من منظور تداولي أكثر من وسيلة إيصال المعلومات والمدركات بين المتخاطبين، فهي تدفع المتلقي إلى إلتزام سلوك معين تجاه ما يتلفظ يه المتكلم، كما تحدد العلاقة القائمة بينهما من خلال السياق الثقافي والاجتماعي المحيط بهما، والقوانين التي تتحكم في خطابهما، وتبرز مقاصد المتكلم ومراده من الخطاب، ودور المتلقي وردود أفعاله تجاه ما يتلقاه.

واعتبارا من أن الحجاج بنية لغوية منطقية، تتظافر فيها مجموعة من العناصر لتكوينها، بما فيها مكونات الحجاج وسياقه، لغاية التأثير في المتلقي واستمالته إلى تغيير معتقد

أوسلوك، ومن ثمّ إنجاز شيء ما. فالحجاج من هذا الطرح لايكمن وراء تركيب لغوي معين يبرز مكوناته، وإنما ينشأ من تداخل بنى لغوية وأخرى غير لغوية؛ إذ المتكلم يسعى إلى إقناع المتلقي بحجج وأدلة يعتمد في صياغتها على طريقة معينة في محيط مناسب، لغاية إيصال المتلقي لاستنباط نتيجة محددة، تظهر في واقعه العملي بعد إقتناعه بها.

إن الجانب التداولي للحجاج يظهر من خلال استعمال بنية لغوية معينة، تتحكم فيها ضوابط خارجة عن هذه البنية، وتدفع المتلقي إلى فعل معين، سواء على مستوى سلوكاته أوعلى مستوى قناعاته وأفكاره. وبالتالي تتجسد بنية الحجاج في شكل فعل كلامي مؤلف من الفعل النطقي، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري – حسب رؤية "سيريل":

- فالفعل النطقي في الحجاج يمثل الهيئة التركيبية لما يتلفظ به المتكلم، وبما انتظم من أصوات لغوية داخل تركيب نحوي سليم له دلالة معجمية.

- أما الفعل القضوي في الحجاج فيمثل مقصد المتكلم من ذلك الفعل النطقي، وهو نيته لإقناع واستمالة المتلقي والتأثير فيه، من خلال دعوى الحجاج ونتيجته، فتصبح بذلك دعوى الحجاج فعلا قضويا.

- وأما الفعل الإنجازي في الحجاج فيمثل جملة ما يؤديه الفعل النطقي والفعل القضوي من معاني إضافية يتضمنها المعنى الأصلي، وتمثل – غالبا – استنتاجات المتلقي وردود أفعاله الممكنة والمحتملة تجاه دعوى الحجاج، سواء قبولا أو رفضا أو حجاجا عكسيا، فتظهر عند المتلقي في شكل أفعال عند القبول أو الرفض أو المحاججة العكسية.

- وأما الفعل التأثيري، فبالرغم من أن "سيريل" لا يوليه أهمية كبيرة، وحجته في ذلك أن كل فعل كلامي ليس بالضرورة ذا أثر في المتلقي، إلا أنه في الحجاج يمثل أقصى غاية؛ فالفعل التأثيري يكمن فيما يتركه الفعل الإنجازي من أثر في المتلقي، والحجاج يهدف إلى التأثير في المتلقي وإقناعه بقضية أو فكرة أو سلوك يظهر في واقعه الفعلي. لذا فأثر الفعل الإنجازي المتمثل في الفعل التأثيري هو غاية ما يهدف إليه الحجاج.

وهذا المخطط يقارب بين تقسيمات "سيريل" للأفعال وما يقابلها في الحجاج:

أقسام الفعل الكلامي		مجال الحجاج
الفعل النطقي	____________>>	ما يتلفظ به المتكلم المحاجج
الفعل القضوي	____________>>	دعوى ونتيجة الحجاج
الفعل الإنجازي	____________>>	ردود أفعال المتلقي
الفعل التأثيري	____________>>	أثر الحجاج في واقع المتلقي

وإذا صحّت هذه المقاربة المفاهيمية بين أقسام الفعل الكلامي عند "سيريل" وبين ما يقابلها في مجال الحجاج، فإنه بالإمكان إبراز بعض تصنيفات الأفعال الكلامية قياسا بمكونات الحجاج. لقد صنّف "سيريل" – كما سبق ذكره آنفا - الأفعال الكلامية إلى: الإخباريات، والتوجيهات، والإلتزامات، والتعبيريات، والإعلانيات. وبالنظر إلى طبيعة الحجاج وإلى بنيته العامة وإلى الآليات التي يعتمدها المتكلم في الحجاج، ومقصده من ذلك، يمكن القول أن أكثر وأبرز الأفعال الكلامية الواردة في الحجاج تتمثل في التوجيهات والإلتزامات، نظرا لغرضها الإنجازي المرتبط في الحجاج بردود أفعال المتلقي؛ فالتوجيهات أوالأوامر غرضها الإنجازي توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما، والحجاج يهدف إلى إقناع المتلقي لتظهر دعوى ونتيجة الحجاج في آرائه أو سلوكه في واقعه الفعلي. وأفعال هذا الصنف من: أمر، ونصح، واستعطاف، وتشجيع، وطلب، تظهر في التراكيب اللغوية المعتمدة عموما في الحجاج. أماالإلتزامات فإن غرضها الإنجازي متمثل في إلتزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، وفي الحجاج يمثل هذا الإلتزام من المتكلم تدعيما بالمصداقية، الذي من شأنه أن يبرز قناعة هذا المتكلم تجاه ما يطرح، ليكون دليلا وحجة لإقناع المتلقي، وهذا ما نجده في أفعال هذا الصنف التي تمثل الوعد والوصية ، فالمتكلم المحاجج في بعض السياقات التواصلية يعمد إلى استعمال بنى لغوية تجسد هذين الصنفين من الأفعال.

وخلاصة القول، إن مجال المقاربة بين أفعال الكلام وتصنيفاتها في مفاهيمها العامة بالمنظومة المفاهيمية للحجاج يبرز تقاربا إلى حد كبير في هذا الشأن، وهو مجال كفيل بأن

يفتح آفاقا مستقبلية، سواء لإثراء حقل التداولية ونظرية أفعال الكلام أو في بناء نظرية متكاملة للحجاج.

الهوامـش و المراجـــع

1 - د/ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1 ،2005، ص16.

2 - المرجع نفسه، ص16.

3 - محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية ، مصر، 2002، ص10.

4 - د/ نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2004، ص168.

5 - المرجع نفسه، ص169.

6 - المرجع نفسه، ص169.

7 - المرجع نفسه، ص169.

8 - د/ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص16.

9 - المرجع نفسه، ص17/16.

10 - المرجع نفسه، ص16.

11 - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة د/ سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986، ص38.

12 - محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ص42.

13 - المرجع نفسه، ص43.

14 - المرجع نفسه، ص42/41.

15 - د/ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص40.

16 - J.L.AUSTIN, Quand dire c'est faire, Traduction Gilles Lame, Editions du SEUIL, Paris, 1970, p109.

17 - IBID, p113.

18 - IBID, p114.

19 - فرانسوازأرمينكو، المقاربة التداولية، ص63.

20 - محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص47.

21 - المرجع نفسه، ص75.

22 - نقلا عن: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص66/67/68.

23 - محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص80.

24 - المرجع نفسه، ص81.

25 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط03، 1994، مجلد02، مادة (ح،ج،ج)، ص228.

26 - محمد العبد، النص الحجاجي العربي: دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، صيف-خريف 2002، العدد60، ص44.

27 - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2003، ص120.

28 - الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم "سورة النحل نموذجا"، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ديسمبر1997، العدد12، ص330.

29 - هذه المكونات الحجاجية مأخوذة وبتصرف نقلا عن :

- محمد العبد، النص الحجاجي العربي، مجلة فصول، ص44/45.
- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، ص122/123.

30 - د/ جميل عبد المجيد، البلاغة والإتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000، ص133.